عالمية القرآن
(وقفة تحليلية في تراكيب النداء)

أ. د. وفاء عبّاس فيّاض

جامعة كربلاء – كليّة العلوم الإسلاميّة – قسم اللغة العربية

The universality of the Qur'an
(An analytical pause in the structures of the call)

Prof. Dr Wafaa Abbas Fayyad

Karbala University/ College of Islamic Sciences

The department of Arabic language

ملخص البحث

تركزت فكرة البحث في تراكيب الخطاب القرآني للنداء الدالة على العالمية، وقد اختلفت هذه التراكيب باختلاف سياقاتها القرآنية؛ ولعل من أبرزها الخطاب بـ (يا بني آدم) و (يا أيها الناس) و(يا أيها الإنسان)؛ ولربما كانت هنالك ألفاظ أخرى ستظهر في صفحات البحث؛ ولكن الذي يهمنا التركيب وليس اللفظ المفرد، وحاولت التدرج في الحديث في الخطاب من الأشمل والأوسع إلى الأقل شمولية وكلها دالة على العالمية.

Abstract

Hence the idea of the research, which was identified in the structures of the Qur'anic call that indicate universality, and these structures differed according to their different Qur'anic contexts; Perhaps the most prominent of them is the speech "Oh, children of Adam" and "Oh people" and "Oh, people"; There may be other terms that will appear in the search pages; But what matters to us is the composition, not the singular pronunciation.

And I tried to gradual talk in the discourse from the most comprehensive and broad to the least comprehensive, all of which are indicative of universality.

المقدمة:

الحمد لله على ما أنعم، وله الشكر على ما ألهم، والصلاة والسلام على محمد وآله وسلم. أما بعد: فالقرآن الكريم ما زال الكتاب المقدس الوحيد الذي فيه كثير من الحقائق والمعجزات التي تبهر المتلقي بألفاظه وتراكيبه وأساليبه، وما زالت الدراسات فيه لا تنفد ولا ينتهي الاستكشاف في آياته، ومما لفت انتباهي في الخطاب القرآني أن هنالك جملة من التراكيب التي توحي باستعمالاتها وتشير صراحة إلى عالمية هذا الكتاب المعجز، ولا تبدو خطاباته مقتصرة على فئة معينة أو مكان محدود أو زمان معين بل إنه خطاب لعموم البشر بغضّ النظر عن جنسهم أو لونهم فهو يتخطى عامل الزمن والمكان ويتجاوزهما.

ومن هنا جاءت فكرة البحث التي تركزت في تراكيب الخطاب القرآنية للنداء الدالة على العالمية وقد اختلفت هذه التراكيب باختلاف سياقاتها القرآنية؛ ولعل من أبرزها الخطاب بـ (يا بني آدم) (يا أيها الناس) و(يا أيها الإنسان)؛ ولربما كانت هنالك ألفاظ أخرى ستظهر في صفحات البحث؛ ولكن الذي يهمنا التركيب وليس اللفظ المفرد.

وبحسب ما تقدم سيكون البحث مقسما على ثلاثة مباحث يكون الأول في دراسة التركيب في الخطاب في(يا بني آدم)، والثاني في دراسة التركيب في الخطاب (يا أَيُّها الناس) والثالث في دراسة التركيب في الخطاب(يا أَيُّها الإنسان)، وحاولت التدرج في الحديث في الخطاب من الأشمل والأوسع إلى الأقل شمولية وكلها دالة على العالمية. وحاولت أن أصل لموضوع العالمية وأحدد مصطلحها وأبين مفهومها، وهو ما عرضته في التمهيد، مع الوقوف على مصطلح التركيب وتركيب النداء والخطاب القرآني، وقبل كل هذا كانت هنالك مقدمة للبحث، وانتهى البحث بنتائجه في الخاتمة، وقائمة المصادر التي توزعت ما بين كتب التفسير وكتب

اللغة المختلفة وغيرها من المصادر.

التمهيد:

أولا: العالمية تأصيل المصطلح والمفهوم

ترجع أصول لفظة (العالمية)[١] في اللغة إلى جذر(عَلِمَ)، وعلى ما يبدو فهي مأخوذة من لفظ العالَم، وهو ما ورد عن كثير من اللغويين، قال الزجاج (ت٣١١هـ) أن لفظة العالمين:((معناه كلُ مَا خلق اللهُ، كَمَا قَال؛ (وَهوَ ربُّ كل شيءٍ) وَهُوَ جَمْع عَالَم، تَقول: هُؤلاءِ عَالَمُونَ، ورأيتُ عالَمِين، ولا واحدَ لعَالَمٍ منْ لَفْظه لأن عالَماً جمع لأشياء مختلفة، وأنْ جُعل ((عَالَمَ)) لواحد منها صار جمعاً لأشْياء مُتَفِقَة.»[٢]، وقال الأزهري (ت٣٧٠هـ): « فهذه جملة ما قيل في تفسير العالَم وهو اسم بني على مثال فاعَلٍ كما قالوا خاتَمٌ وطابَعٌ ودانَقٌ «[٣] وقال ابن منظور: «والعالَمُ الخَلْق كلُّه وقيل هو ما احتواه بطنُ الفَلك»[٤] فهو اسم جنس جمعيّ لما خلق لله.

وأما مصطلح العالمية فقد تحدث فيها دارسو المعارف القانونية والتشريعية السياسية، وهي تساوي عندهم العولمة وهي Globalisation وذهب أحد الباحثين[٥] إلى أنها ليست مجرد فكرة تتعلق بها الأشياء بقدر ما تكون صفة فاعلة في العالم، فاللغة التي لا يتكلمها الجميع ليست لغة عالمية، بمعنى أنّ فاعلية الشيء بحصول الفائدة المرجوة لصلاح البشرية، أو لصالحها هي المعيار الحقيقيّ للوصف بالعالمية. أمّا إذا اقتصرت هذه السمة على الناحية النظرية، فالأولى أن يتمّ وصفها بالإنسانية، بمعنى أنه روعي في الشيء أن يكون لعامة البشر، سواء وصلت منافعه لهم أو لم تصل. لذا فالأولى أن يتمّ إطلاق لفظة الإنسانية على الرسالة التي تدلّ على ما تحمله هذه الرسالة للبشر عامة، واستعدادها لقيادتهم إلى ما فيه صلاحهم.

ومما تقدم نستطيع أن نعرّف العالمية[٦]: بأنها اتصاف متعلّقها بالقدرة الفاعلة لتحقيق مبادئه للعالم كله؛ على نحو لا تستبطن إلغاء الهويات المحلية

للشعوب المختلفة؛ ومن جهة عالمية الإسلام فخصوصيات تلك المجتمعات مسلمة كانت أم غير مسلمة محترمة؛ لما تتسم به العقيدة الإسلامية من سماحة برفعها شعار ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾.

وما لم يتحقق ذلك على مستوى الفعل يبقى وصفنا الإسلام ممثلا بالقرآن الكريم دون الحقيقة، إذ الحقيقة هنا تعود إلى فاعلية الاتباع في الأخذ بزمام المبادرة، وطرح الإسلام وكتابه على نحو فيه جني الفوائد، وتحقيق آمال عموم البشر في ظل قيادتهما والسير في ظلهما. ولأجل ذلك يجب على أتباعه أخذ زمام المبادرة الحضارية، واعتماد آليات تتناسب وضخامة هذا العمل.

ومن ثمّ فإن وصف الشيء بالعالمية تعني أنّ ذلك الشيء أصبح معروفاً ومتعرفاً على مبادئه وأصوله وليس مكتسباً صفة الاتساع على مستوى العالم، ولم يقتصر أمره على مكان محدّد، بل أصبح متعلقا بالعالم كلّه. وترد في هذا المجال اللغة العالمية (Universalism language) التي تطلق على((اللغة التي يمكن أن يتكلّم، ويتفاهم بها جميع الناس في العالم))[٧].

ويبدو أن فاعلية عالمية الإسلام يجب أن تؤسس في الحياة المعاصرة تبعا للوعي التاريخي بمتطلبات المرحلة لاسيما الاقتصادية منها هذا من جهة، والتطور التقني في وسائل الاتصال للعصر من جهة أخرى[٨].

ثانياً: تركيب النداء والخطاب القرآني:

مادة رَكِبَ في اللغة تعني العلو والأصل والمنبت، قال ابن منظور(ت٧١١هـ): «رَكِبَ الدابَّة يَرْكَبُ رُكُوباً: عَلا عَلَيْهَا، وَالِاسْمُ الرِّكْبة، بِالْكَسْرِ، والرَّكْبة مرَّةٌ واحدةٌ. وكلُّ مَا عُلِيَ فَقَدْ رُكِبَ وارْتُكِبَ.»[٩] وقال أيضاً: «والمُرَكَّبُ أَيضاً: الأَصلُ والمَنْبِتُ؛ تَقُولُ: فلانٌ كرِيمُ المُرَكَّبِ أَي كرِيمُ أَصلِ مَنْصِبِه فِي قَوْمِهِ.»[١٠]

والتركيب في الاصطلاح كالترتيب، ولكن ليس لبعض

أجزائه نسبة إلى بعض تقدمًا وتأخرًا، والتركيب: جمع الحروف البسيطة ونظمها؛ لتكون كلمة.[١١]

والتركيب النحوي يراد منه ضمُّ كلمةٍ إلى مثلِها فأكثر[١٢] والْمركب هُوَ الْمركب من كَلِمَتَيْنِ بِمَنْزِلَة اسْمٍ وَاحِدٍ فِي شدَّة الِانْعِقَاد.[١٣]

ودلالة النداء لا تخرج معانيها في المعجمات اللغوية القديمة والحديثة عن إطار الصوت، والدعاء، والصراخ، قال الرازي(ت٦٦٦هـ): ((النِّداءُ الصوت وقد يُضم ونَادَاهُ مُنَادَاةً ونِدَاءً صاح به))[١٤]، وقال ابن منظور(ت٧١١هـ): ((والنَّدَى عَلَى وُجُوهٍ: نَدَى الماءِ، ونَدَى الخَيرِ، ونَدَى الشَّرِّ، ونَدَى الصَّوْتِ، ونَدَى الحُضْر، ونَدَى الدُّخْنةِ.))[١٥]

والنداء هو طلب إقبال المخاطب أو دعوة مخاطب بحرف نائب مناب فعل: كـ (أدعو أو أنادي) والمنادى عند النحويين هو المطلوب إقباله بحرف نداء ظاهر أو مقدر، وأدواته وهي: (الهمزة وأي) للقريب و (يا، وآي، آ، وأيا، وهيا، ووا)[١٦] مثل قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمْ﴾. (سورة البقرة ٢١) أو هو «توجيه الدعوة إلى المخاطب، وتنبيهه للإصغاء، وسماع ما يريده المتكلم»[١٧]. والنداء كبقية أنواع الإنشاء الطلبي الذي يستدعي مطلوباً غير حاصل -في اعتقاد المتكلم - وقت الطلب، أو هو ما يستلزم مطلوباً ليس حاصلاً وقت الطلب[١٨] تخرج ألفاظه إلى معان بلاغية أخرى تفهم من سياق الحديث والقرائن التي تدل على ذلك الخروج، ومنها خروجها إلى الإغراء والاختصاص والتوجع وإلى التعجب وإلى الندبة وإلى الاستغاثة وغيرها[١٩].

وثمة إشكال آخر يعرض هو أن النداء أسلوب إنشاء وليس خبراً وتركيباً فهو خارج دائرة الصدق والكذب لذاته المشترطة في الخبر عند النحويين واللغويين؛ لأنه ليس لمدلول لفظه قبل النطق به واقع خارجي يطابقه أو لا يطابقه، وهذا ما اعتمد عليه القدماء حينما فصلوا بين الخبر والإنشاء

فقال الخطيب القزويني(ت٩٣٧هـ):

«ووجه الحصر أنّ الكلام إما خبر أو إنشاء، لأنّه إما أن يكون لنسبته خارج تطابقه أو لا تطابقه، أو لا يكون لها خارج. الأول الخبر، والثاني الإنشاء»[٢٠].

وخلاصة القول إن النداء في اللغة: مصدر الفعل نادى ينادي، مناداة بمعنى الصوت، والدعاء، والصراخ، فهي ثلاثة دوال لمدلول واحد هو النداء[٢١]

ومن الملاحظ أن النداء علامة من علامات التواصل بين الناس، وهو دليل قوي على اجتماعية اللغة، ومن ثم فهو كثير الاستعمال، ولا يكاد يخلو كلام إنسان كل يوم من النداء؛ لذلك كان للنداء أسلوب خاص، بل تركيب خاص اختلف في شأنه اللغويون؛ فهو تركيب لأنه لا يفيد معنى كاملا حين نقف عليه، وهو يتكون من حرف للنداء ومنادى، والجملة المعروفة لا تتكون من حرف واسم فقط، ولا بد أن يكون فيها إسناد بين اسم واسم أو بين فعل واسم؛ لهذا كله يرى بعض اللغويين المحدثين قبول هذا التركيب على أنه جملة لكنهم يطلقون عليها «جملة غير إسنادية». على أن النحو العربي يرى أن جملة النداء جملة تامة شأنها شأن الجمل الأخرى يتوافر فيها إسناد غير ظاهر؛ لأن المنادى عندهم نوع من (المفعول به)، وهو منصوب بفعل محذوف تقديره: أنادي، أو أدعو، وهذا الفعل لا يظهر مطلقا، وحرف النداء ينوب عنه ويعمل عمله. وهناك اعتراض قديم على تقدير هذا الفعل؛ لأن جملة النداء جملة طلبية، وهذا التقدير يحوّلها إلى جملة خبرية، وهو اعتراض لا موضع له في التحليل النهائي لهذه الجملة.[٢٢]

إن القرآن الكريم في خطابه لعموم الناس لم يفرّق بين الأمم والشعوب والأجناس، ولم يصنّفها تصنيفا عنصريا وإنما جعل التقوى والالتزام بالمنهج هو معيار التفاضل بين البشر، ولذلك قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى

وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات١٣) فهذا العدل وهذه المساواة ملمح من ملامح عالمية خطاب القرآن.[٢٣] وهو ما أكده النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) إذ خطب الناس في أكبر جمع للمسلمين في أيام التشريق، فقال: « يَا أَيُّهَا النَّاسُ، أَلَا إِنَّ رَبَّكُمْ وَاحِدٌ، وَإِنَّ أَبَاكُمْ وَاحِدٌ، أَلَا لَا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى عَجَمِيٍّ، وَلَا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ، وَلَا أَحْمَرَ عَلَى أَسْوَدَ، وَلَا أَسْوَدَ عَلَى أَحْمَرَ، إِلَّا بِالتَّقْوَى أَبَلَّغْتُ؟ قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ يَوْمٍ هَذَا؟، قَالُوا: يَوْمٌ حَرَامٌ، ثُمَّ قَالَ: أَيُّ شَهْرٍ هَذَا؟، قَالُوا: شَهْرٌ حَرَامٌ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَيُّ بَلَدٍ هَذَا؟، قَالُوا بَلَدٌ حَرَامٌ، قَالَ: فَإِنَّ اللهَ قَدْ حَرَّمَ بَيْنَكُمْ دِمَاءَكُمْ وَأَمْوَالَكُمْ. قَالَ: وَلَا أَدْرِي قَالَ: أَوْ أَعْرَاضَكُمْ، أَمْ لَا ـ كَحُرْمَةِ يَوْمِكُمْ هَذَا، فِي شَهْرِكُمْ هَذَا، فِي بَلَدِكُمْ هَذَا أَبَلَّغْتُ، قَالُوا: بَلَّغَ رَسُولُ اللهِ، قَالَ: لِيُبَلِّغِ الشَّاهِدُ الْغَائِبَ»[٢٤]

إن الخطاب القرآني عالمي، فهو يستوعب حياة الناس جميعا، وحينما شرع الله هذه الشريعة جعلها للناس كافة في الأرض كل الأرض، وفي كل زمان إلى يوم الدين قال تعالى:﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلَّا كَافَّةً لِلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾(سبأ٢٨)؛ فهو خطاب يستوعب الحياة بأكملها، لأنه خطاب قادر على استيعاب خصوصيات الناس وسائر أنماط حياتهم الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية...إلخ. كما أنه خطاب معجز، فهو ليس كأي خطاب؛ لأنه مطلق يستوعب الإنسان والمجتمع والواقع أي واقع، ويتجاوزه ليستوعبه بما يحمل من قدرات الخطاب المهيأ لذلك.

وعلى العموم فإن رسالة السماء الواعية والداعية إلى اتباع الحق المطلق ممثلة بكتابه المقدس (القرآن الكريم) قدمت أطروحات مستفيضة لتعلن أن هذا الكتاب ليس للمسلمين فحسب؛ وإنما هو خطاب عام وشامل لجميع

خلقه دون تمييز بين جنس أو لون أو غيرهما ولهذا فـ ((إنّ العقيدة التي نتدين بها ليست مجرد أيديولوجية؛ وإنما هي العلم الكليّ والشامل والمحيط ووحي السماء والميزان المستقيم الحق المعصوم الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وهي منظومة القيم التي تمثّل مرجعيتنا في السلوك، فهي ليست نسبية ولا مرحلية))[٢٥].

وكما ذكرنا سابقا ((إنّ المتلقي للقرآن الكريم هو الإنسان، بغضّ النظر عن عرقه، أو جنسه، أو ثقافته، أو انتمائه، وقد خاطبه القرآن، على امتداد صفحاته، وجعله مركز الاهتمام، وموضع العناية، وهذا المتلقي النوعي مهما اختلف يؤول إلى مشترك جامع هو مناط الخطاب القرآني))[٢٦].

وقد وظّف الخطاب القرآني، في الدلالة على هذا المتلقي العام، مجموعة من الألفاظ استثمرها لإيصال خطابه إلى الإنسانية كافة، وعلى رأسها لفظ (الناس)، و(العالمين)، و(الأمة)، و(بني آدم)، و(الإنسان)، وهي مفاهيم مركزية في الخطاب القرآني تتردد كثيرا ضمن توزيع محكم داخل القرآن الكريم، وقد مثلت نسيجاً مترابطاً، ووحدة مفهومية يحكمها نسق مقاصدي، وبُعد كوني، وأفق إنساني رحب[٢٧].

ولكن النداء بوصفه - وحدة قاعدية- في الخطابين الشفهي والكتابي، له أهمية بالغة، وأهميته تكمن في كونه البنية الخطابية الأكثر دورانا على الألسنة، والأقلام، لما تتمتع به هذه البنية من قدرة على التعبير عن مختلف الأغراض والمشاعر الإنسانية، لذلك وجدناه يتقدمها في مختلف المخاطبات تحضيراً للأذهان، وتهيئة للنفوس، لكي تقبل على ما يوجه إليها، فالنداء هو الطريقة المثلى بصيغه الظاهرة والمحذوفة، وأشكاله المختلفة، وأساليبه المتنوعة للتعبير عن الغرض، حين تقصر الوسائل الأخرى، من إشارة وإيماءة حركة وغمزة، وبسمة، فقد يلجأ إليه المنبه، والداعي، والشاكي، والمتضجر،

والمتعجب، والمتوعد،..الخ.[٢٨]

وهذا يعني أن للنداء أهمية بالغة في المنظومة اللغوية العربية، وأهميته تتجلى في الأثر الذي يؤديه في الحياة البشرية، ووظيفته في التواصل بينهم، والتواصل لا يتم إلا إذا كان هنالك تخاطب، فإن النداء أحد أدوات هذا التخاطب؛ لأنه يجسد دورة التخاطب، إذ يتوافر على مخاطِب بكسر الطاء (منادي) ومخاطَب بفتح الطاء (منادى) ورسالة، ولما كان النداء خطاباً تنوعت أغراضه بحسب صدوره وتوجهه، فهو قد يصدر من أسفل إلى أعلى، أو من أعلى إلى أسفل، أو مخاطبين متساويين[٢٩] فالذي يهمنا ما كان صادرا من الأعلى وهو الله سبحانه وتعالى وموجها مرة إلى بني آدم فقال: يا بني آدم، ومرة إلى الناس فقال: يا أيها الناس ومرة إلى الإنسان فقال: يا أيها الإنسان وهذه كلها متعلقة بالتركيب؛ أما الألفاظ المفردة فكانت كثيرة منها لفظة(كافة) التي وردت أربع مرات ولفظة (العالمين) ثلاث عشرة مرة، ولفظة (كل) مئتين وست وثلاثين مرة، ولفظة (جميعا) ستاً وأربعين مرة.

ونلاحظ أن القرآن الكريم يبدع في استعمال الأدوات لاسيما الأداة (يا) التي هي للنداء إذ يستعملها بدلالات مختلفة ومعان متعددة بحسب السياق الذي توضع فيه فـ(يا) أداة للنداء قد تضاف إلى الأعلام كقوله تعالى:﴿يا آدم﴾[٣٠] و﴿يا موسى﴾[٣١]، وقد تأتي للتنبيه كما في قوله تعالى: ﴿فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ﴾ (الأنعام ٢٧)، وقد تأتي للتمني كما في قوله تعالى:﴿يَا لَيْتَنِي كُنْتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (النساء٧٣)، وللتحسر والتأسف في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ يَا أَسَفَا عَلَى يُوسُفَ﴾ (يوسف٨٤).

وقد يأتي أسلوب النداء بالأداة (يا) المركبة من أداة النداء(يا) وأداة الوصل (أيّها) لصعوبة الوصل إلى المنادى مباشرة، والمنادى قد يكون الذين أمنوا كما في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾(البقرة ٢٥٤)، أو الكافرون كما في قوله تعالى: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا

﴿الْكَافِرُونَ﴾ (الكافرون١) أو تستعمل لنداء عامة الناس إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾. والذي يهمنا في هذا الصدد هو البحث في التراكيب القرآنية التي تظهر فيها بنية النداء وسيلة للتواصل بين المتكلم والمتلقي في الخطاب القرآني، والتي تدل على عالمية الخطاب.

المبحث الأول: التركيب القرآني ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾

لقد كان الخطاب في القرآن الكريم موجها إلى بني آدم، وبني آدم هو منادى مضاف يتكون من وحدتين هما: (بني) بصيغة الجمع، و(آدم)، ولفظ بني، واحد الابن والأصل، (بنو) أي من البناء، والابن فرع عن أبيه، فالأب أصل والابن فرع عليه، فهو بناء عليه، أما لفظ (آدم) ففيه أقوال من بينها أنه مشتق من أديم الأرض، أي وجهها، وهو اسم أبينا آدم (عليه السلام). وكذلك:((آدم مشتقٌّ من الأُدْمَة، وهى بَياضُ اللَّوْن. وقيل: لَوْنٌ بين البَياض والسَّوادِ كلَوْن الحِنطة، وقيل: لأَنَّه خُلِقَ من أَدِيم الأَرْضِ))[٣٢].

ويعد الخطاب القرآني رسالة إبلاغية ربانية عالمية لكل بني آدم أنزله تعالى على نبيه (صلى الله عليه وآله وسلم) ليكون للعالمين نذيراً، وفي ذلك قال تعالى:﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَى عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾(الفرقان١). وفي هذا الشأن يقول الشيخ الغزالي: ((فخطاب القرآن عالمي ورسالته خاتمة، وله بعد في الزمان الماضي والحاضر والمستقبل، وله بعد في المكان بحيث يشتمل العالم كله))[٣٣].

إن السمة البارزة التي لا تفارق النداء هي فكرة الطلب والإقبال والاستحضار، وقد ورد في القرآن بمختلف صيغه الاسمية والفعلية بهذه الدلالات[٣٤]، والذي يعنينا هو ما جاء فيه الخطاب القرآني بهذا التركيب ﴿ يَا بَنِي آدَمَ﴾ في خمس آيات قرآنية مباركات، إذ حاول الخطاب القرآني في هذا الجانب استثمار جميع طاقاته اللغوية المختلفة في الخطاب؛ لأن اللغة

نظام يتألف من مجموعة من عناصر، كل عنصر يؤدي وظيفته داخل النظام، وكل عنصر يدل على العنصر الآخر، فأداة النداء تدل على وجود منادى وهذا المنادى قد يكون مفردا، أو مركّبا، وأعني بالمفرد هنا ألا يكون مضافا أو شبيها به، وألا يكون متبوعا،[٣٥] فقد جاءت البنى الندائية القرآنية لأربع من الآيات الخمس مكونة من بنية ندائية مكونة من مركب أداتي مذكور(يا) مع مركب اسمي مكون من تركيب إضافي: مضاف ومضاف إليه. والإضافة هي صلة معنوية بين المضاف والمضاف إليه، والمضاف هو اللفظ الذي يسبق المضاف إليه، والذي يأتي ليقيده وليحدد مدلوله. أما المضاف إليه فهو زيادة لفظية تفضي إلى زيادة معنوية جزئية أو فرعية لا يغير حذفها معنى التركيب الأساس، فالمضاف إليه هو من الفضلات، أو من المكملات، أو هو التكملة الجزئية، أو الفضلة التي تلازم الجر دائما.[٣٦]

ومن الملفت للنظر أن هذه الآيات الأربع كانت كلها من حصة سورة الأعراف؛ لِأَنَّ الْغَرَضَ مِنَ السُّورَةِ إِبْطَالُ مَا كَانَ عَلَيْهِ مُشْرِكُو الْعَرَبِ مِنَ الشِّرْكِ وَتَوَابِعِهِ مِنْ أَحْوَالِ دِينِهِمُ الْجَاهِلِيِّ[٣٧]، وهو موضوع مهم في اثبات العقيدة الصحيحة، وإن المتأمل في السياقات القرآنية التي ظهر فيها الخطاب﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾ هو خطاب العموم فإنه خطاب لأهل ذلك الزمان ولكل من بعدهم، مثله مثل الوصايا التي يوصي بها الآباء لأبنائهم ولأحفادهم[٣٨].

وقد تواتر هذا التركيب في صيغة المنادى خمس مرات في كل القرآن، كان في كلها الخطاب عاما لجميع البشر، وهو ما أكده أغلب المفسرين، ففي قوله تعالى:﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (الأعراف٣١)، قال القرطبي(ت٦٧١هـ): ((خِطَابٌ لِجَمِيعِ الْعَالَمِ، وَإِنْ كَانَ الْمَقْصُودُ بِهَا مَنْ كَانَ يَطُوفُ مِنَ الْعَرَبِ بِالْبَيْتِ عُرْيَانًا،

فَإِنَّهُ عَامٌّ فِي كُلِّ مَسْجِدٍ لِلصَّلَاةِ. لِأَنَّ الْعِبْرَةَ لِلْعُمُومِ لَا لِلسَّبَبِ))[٣٩] ويراد به أن سبب النزول لا يخصص اللفظ بل جعله للعموم، وقال الثعالبي: ((هذا خطاب عَامٌ لجميع العالم... والزينة الثياب الساترة))[٤٠] وفي الآية دليل على وجوب ستر العورة، وهي واجبة على كل بني آدم، مؤمنهم وكافرهم، فبهذا الستر يتميز الإنسان عن سائر الحيوانات إلى جانب العقل الذي شرفه الله به وكرمه، وميزه، واللباس من جملة النعم، فستر العورة نعمة، ولذلك أكدها في آية أخرى وهي قوله تعالى:﴿يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَى ذَلِكَ خَيْرٌ ذَلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ﴾ (الأعراف ٢٦). ويقول عنها الثعالبي:((خطاب لجميع الأمم وقت النبي (صلّى الله عليه وآله وسلّم) والسَّبَب والمراد: قريش، ومَنْ كان مِنَ العَرَبِ يتعرّى في طوافه بالبيت.))[٤١]

وأما قوله تعالى:﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنْزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ (الأعراف٢٧). فهو ((خطاب لجميع العالم، والمقصود بها في ذلك الوَقْتِ مَنْ كان يطوف من العَرَبِ بالبيتِ عُرْيَاناً.))[٤٢] والقول نفسه سحبه على قوله تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ إِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي فَمَنِ اتَّقَى وَأَصْلَحَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (الأعراف٣٥).إذ يقول: ((الخِطَابُ في هذه الآية لجميع العالم))[٤٣].

وأما قوله تعالى:﴿أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لَا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ * وَأَنِ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ * وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾ (يس٦٠-٦٢). فدلالة لفظ (بني آدم) في سورة يس، على عمومية الجنس البشري واضحة عبر السياق الذي وضعت فيه، إذ

جاءت بعد توبيخ وتقريع من اتصفوا بالإجرام وتميزوا به.[٤٤] ومطلب العبادة رأس المطالب القرآنية، وهو مطلب عام كلي تندرج تحته باقي المطالب، وتشرحه وتوضحه، وليست العبادة هنا، بالمعنى الخاص المقتصر على الصلاة ونحوها مما شرّعه الله، فالعبادة مقصد عام، وكليّة جامعة، وهذا المعنى مناسب لمعناها الوارد في لغة العرب؛ إذ قيل في معنى العبادة إنها الخضوع لله بالطاعة، والتذلل له بالاستكانة، وهي تطلق على غاية التذلّل.[٤٥]

المبحث الثاني: التركيب القرآني ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾.

قال سيبويه عن (يَا أَيُّهَا) أن الألف والهاء لحقت (أيًّا) توكيداً؛ فكأنك كررت (يا) مرتين وصار الاسم تنبيهاً،[٤٦] وذكر الزمخشري أن (يا): ((حرف وضع في أصله لنداء البعيد، وهو صوت يهتف به الرجل بمن يناديه، وأما نداء القريب فله أي والهمزة)).[٤٧]

ولفظ (الناس) من أعمّ الألفاظ، وأكثرها استعمالا في القرآن الكريم، فقد ورد مفردا في أكثر من (٢٣٠) مئتين وثلاثين مرة، وترجع مادته اللغوية إلى معنى النَوّس والاضطراب والحركة[٤٨]، وهو لفظ عام يشتمل على الأنس والجن[٤٩]، كما يطلق ويراد به أيضاً، من وُجد فيه معنى الإنسانية؛ أي إنسان كان، وربما قصد به النوع[٥٠]، وهو اسم جمع لا مفرد له من لفظه ومفرده إنسان[٥١].

و(الناس) اسم جمع، نودي، هنا وعُرِّف ب(أل) ليشمل كل أفراد مسمّاه؛ لأن الجموع المعرَّفة باللام للعموم، وهي في العموم أنصّ من عموم المفرد المحلى بأل[٥٢].

وقد يؤتى بـ (أي) للتعظيم، نحو: (يا أيها الملك) (يا أيها العزيز) بخلاف ما لو قلت (يا ملك) (يا عزيز) فإنه ليس في هذا تعظيم.[٥٣]

إن خطاب الناس في القرآن يتأسس على رؤية شاملة دقيقة، وتقوم مضامينه على خصائص كونية يشترك فيها كلّ إنسان، فعندما يخاطب القرآن

العربي والعجمي، فهو يخاطبهم بالمشترك الجامع، فيفهمه كلّ متلقٍّ، ويعي عنه كل سامع، لأنه يُخاطب أصل الإنسانية في كل إنسان، ويحدثه عمّا يحسُّ به، ويدركه إدراكا وجدانيا، وهذ ما يجعل للخطاب صدقية وأثرا في المخاطب.(٥٤)

والذي يبدو أن الخطاب القرآني يخاطب النوع الإنساني، موظفاً، بذلك، ما في اللغة من طاقات دلالية، وقدرة على البلاغ والبيان، وهو يقوم على مجموعة من المفاهيم الضابطة، والقضايا المترابطة، وينسج بينها رابطاً مفهومياً يؤسس، في النهاية، خطابا رصيناً في العناوين، عميقا في المضامين، يهدف إلى جعل الإنسان المستخلَف محور الخطاب القرآني.(٥٥)

إن هذا النداء المباشر الموجّه إلى الناس افُتتح في المواضع كلها بحرف النداء (يا) وعلى كثرة وقوع النداء في القرآن لم يقع نداء إلا بحرف (يا)، وهي أعمّ حروف النداء إذ ينادى بها القريب والبعيد والمستغاث والمندوب. وأسلوب النداء هو أسلوب إقبال، يُقبل به المتكلم على المخاطب، ويكون فيه من لطيف التواصل، وجميل الأثر، ما ينعكس على المخاطب نفعاً واستجابة(٥٦) .

ومن الناحية النحوية فالمعروف أن الجملة الابتدائية هي التي تقع في ابتداء الكلام، أو في وسطه منقطعة عما قبلها، وعليه فلا محل لها من الإعراب؛ فالتركيب﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾بنية ندائية وهي طلب وجملة ابتدائية لا محل لها من الإعراب. أما قوله تعالى: ﴿اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ فهي جواب النداء وهو جواب الطلب لا محل لها من الإعراب وما نقوله في هذه الآية يجري على غيرها.

إن من أصول الدعوة، وفقه الخطاب، الذي لا نجد له كبير صدى في الخطاب الدعوي المعاصر؛ هو أن يكون خطاب الناس بالمشترك الجامع، وتعليل المطالب المضمنة في الخطاب،

ومخاطبة الوعي، والشعور، والإدراك، ورفع مقاصد الخطاب إلى مستوى جلب المصالح، ودفع المفاسد؛ لأن أصول الخطاب الدعوي في القرآن الكريم، وعليها تتأسس دعوة الشريعة، وبها تنفتح على العالمين؛ لأنها مطالب حاضرة في كل جيل، وسماتٌ بارزةٌ في كل مجتمع، وقضايا إنسانية عامّة تمثّل مرجعية الخطاب، وأرضية التخاطب.(٥٧)

والتركيب الندائي في قوله:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ هو خطاب لجنس الناس عموماً لا لكل فرد، وإلا فمن المعلوم أن غير المكلف لا يدخل تحت هذا الخطاب وهو من باب التوسع الدلالي من هذه الجهة(٥٨).

وبحسب المفهوم الوظيفي للتركيب فإن البنية الندائية في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ مكونة من مركب أداتي مذكور(يا) مع مركب اسمي منادى(أيها) وهو تركيب وصفي مكون من متبوع وتابعه (عطف بنوعيه، بدل، توكيد، نعت) (الناس) وهي مركب اسمي ملحق مكمل، عطف بيان أو بدل، والتوابع عند الوظيفيين هي من المكملات أو الفضلات التي تكسب عناصر التركيب الرئيسة أو الفرعية معنى جزئياً. والنحاة ينصون في هذا المجال على أن كل ما بعد (أي) جامداً يعرب عطف، بيان أو بدل.(٥٩).

والذي يبدو أن تركيز الخطاب القرآني على هذا اللفظ بخصوصه، واختياره على غيره من الألفاظ، يؤذن بقيمته وغنائه في الدلالة على البعد الإنساني في الإنسان، وعلى القيم التي يحملها هذا الإنسان، والتي جاء القرآن الكريم ليزكيها ويبعثها، ولذا نجد أن البعد الحركي والإنساني متضمّن في لفظ الناس؛ لذلك كان اختيار هذا اللفظ لما يتضمنه من الفعل بمقتضى الحركة، ومن القيم بمقتضى الإنسانية(٦٠).

وتتسع دائرة الخطاب القرآني بهذا التركيب لتشمل السامعين الحاضرين وغيرهم وهو مما أكده الطاهر بن عاشور بقوله: ((فَإِنْ نَظَرْتَ

إِلَى صُورَةِ الْخِطَابِ فَهُوَ إِنَّمَا وَاجَهَ بِهِ نَاسًا سَامِعِينَ فَعُمُومُهُ لِمَنْ لَمْ يَحْضُرْ وَقْتَ سَمَاعِ هَذِهِ الْآيَةِ، وَلِمَنْ سَيُوجَدُ مِنْ بَعْدُ يَكُونُ بِقَرِينَةِ عُمُومِ التَّكْلِيفِ وَعَدَمِ قَصْدِ تَخْصِيصِ الْحَاضِرِينَ وَذَلِكَ أَمْرٌ قَدْ تَوَاتَرَ نَقْلًا وَمَعْنًى فَلَا جَرَمَ أَنْ يَعُمَّ الْجَمِيعَ مِنْ غَيْرِ حَاجَةٍ إِلَى الْقِيَاسِ، وَإِنْ نَظَرْتَ إِلَى أَنَّ هَذَا مِنْ أَضْرُبِ الْخِطَابِ الَّذِي لَا يَكُونُ لِمُعَيَّنٍ فَيُتْرَكُ فِيهِ التَّعْيِينُ لِيَعُمَّ كُلَّ مَنْ يَصْلُحُ لِلْمُخَاطَبَةِ بِذَلِكَ))[٦١]

وقد ردّ أحد الباحثين قول بعض المفسرين من أن الخطاب خاصّ بمشركي مكة بقوله: ((لا يتوافق مع مقتضيات السياق ودلالة الألفاظ))[٦٢]

والمتأمل في الآيات القرآنية التي جاءت بهذا التركيب في الخطاب القرآني يلحظ أن آياته ترتبت في نسق القرآن على وجه من الترتيب بديع، كان أوّلها مطلب العبادة في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (البقرة٢١)، وآخر آية مطلبها التعارف بين الناس، وبيان الأكرمية بالتقوى، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الحجرات١٣).

ففي الآية الأولى: دعوة عامة شاملة إلى الناس، من ربّ الناس، بعد أن عرضهم هذا العرض الكاشف، من مؤمنين، كافرين، منافقين... فالطريق إلى الله مفتوح للناس جميعا، يسع برّهم وفاجرهم، مؤمنهم وكافرهم، وبين يدي كل إنسان شواهد قائمة، وأعلام منصوبة على الطريق، تدعوه إلى الله، وإلى الإقرار بوحدانيته، إذا هو نظر في هذا الوجود، نظرة بعيدة عن الهوى، خالصة من الضلال والزيغ.[٦٣]

أما توجيه الآية الثانية فهو تعقيب عام على جملة من الأحكام والآداب التي ذكرتها الآيات السابقة، التي كانت خطابا للذين آمنوا، ليرتلوها، ويأخذوا أنفسهم بها، وليس هذا فحسب، بل إن عليهم أن يراعوا

هذه الأحكام وتلك الآداب مع غير المؤمنين، أي مع الناس جميعا من كل أمة، ومن كل دين، إنها أخلاق إنسانية، يجب أن تكون طبعا وجبلّة في المؤمن، يعيش بها في الحياة كلها، ومع الناس جميعا، فلا تكون ثوباً يلبسه مع المؤمنين، حتى إذا كان مع غير المؤمنين نزعه، فإنه بهذا إنما ينزع كمالا خلعه اللهّ عليه، ويتعرّى من جلال كساه اللهّ إياه؛ ولهذا جاء الخطاب هنا للناس جميعا: ﴿يا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ والمستمع لهذا الخطاب، والعامل به، هم المؤمنون، ثم أعقب هذا الخطاب، تقرير هذه الحقيقة التي ينبغي أن يعيها المؤمنون: ﴿إِنَّا خَلَقْناكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَ أُنْثى﴾، فأنتم أيها الناس مؤمنين وغير مؤمنين إخوة في الإنسانية، إذ كنتم من طينة واحدة، ومن جرثومة واحدة: كلكم لآدم وآدم من تراب، وأنه إذا كان للمؤمنين منزلة عند اللهّ، وفضل على غير المؤمنين، فذلك رزق من رزق اللهّ، وإن من الخير للمؤمنين أن ينفقوا من هذا الرزق على الإنسانية كلها، وأن يكونوا الوجه الكريم الطيب، الرحيم، فيها.»[٦٤]

فهذا تجريد لمقام تواصلي عام، توجّه فيه الخطاب منساباً متنقلاً بين الأزمنة والأمكنة. وبين الآية الأولى والآية الأخيرة من آيات النداء بهذا التركيب مجموعة من المطالب، التي يتراوح فيها الخطاب بين مطلب التقوى، والإيمان، واتباع الرسول، وذكر نعمة الله، وسماع الأمثال، والتعريف بالرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، وأكل الحلال، وتجنب خطوات الشيطان، ووصف مضامين التشريع بـ(البرهان، والنور، والموعظة، والشفاء، والهدى، والرحمة، والحق)، والتحذير من عاقبة الاغترار، وبيان افتقار الخلق إلى ربهم[٦٥].

إن المتتبع للمواضع القرآنية التي نودي فيها لفظ (الناس) يجدها دائما تشير إلى دلالة العموم، فإن لم يكن عموما لكل الجنس البشري، فهو عموم لكل أفراد هؤلاء الناس المعنيين بالنداء،

فالناس في سورة البقرة في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ وَالَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (٢١)، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ كُلُوا مِمَّا فِي الْأَرْضِ حَلَالًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا خُطُوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ (١٦٨)، وإن لم يعم جميع البشر، إلا إنه يعني جميع الكفار لا بعضهم، فهو من هذه الناحية عموم، والخطاب الندائي هنا التفات على ما يقره البلاغيون، إذ انتقل السياق من الإخبار إلى النداء، فهو التفات للتنبيه فيه هز للسامع وتحريك له، إذ هو خروج من صنف إلى صنف، أما النداء الثاني بهذا اللفظ في السورة نفسها، فلفظه عام كذلك وهي نزلت في كل من حرم على نفسه شيئا لم يحرمه الله عليه.[٦٦].

وأما لفظ (الناس) في بداية سورة النساء في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً﴾ (النساء١). فكان في سياق التنبيه على الخالق، وعلى افتتاح الوجود.

أما نداء لفظ (الناس) في السورة نفسها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الرَّسُولُ بِالْحَقِّ مِنْ رَبِّكُمْ فَآمِنُوا خَيْرًا لَكُمْ وَإِنْ تَكْفُرُوا فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾(١٧٠) فالخطاب فيها لجميع الناس، وهو في سياق الدعاء إلى الشرع، والرسول (صلى الله عليه وآله وسلم)، والسياق نفسه كان قد ورد في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمْ بُرْهَانٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكُمْ نُورًا مُبِينًا﴾ (النساء١٧٤) من السورة نفسها.

أما لفظ الناس المنادى في سورة الأعراف في قوله تعالى:﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (الأعراف١٥٨)، يقول فيه النيسابوري (ت٨٥٠هـ): ((وفيه

دليل على أن محمدا صلى الله عليه وآله مبعوث إلى الخلق كافة خلافا لطائفة من اليهود يقال لهم العيسوية أتباع عيسى الأصفهاني، زعموا أن محمدا صلى الله عليه وآله وسلم رسول صادق لكنه مبعوث إلى العرب خاصة))[٦٧] فالعمومية فيه ظاهرة؛ لأن كل الرسل بعثوا إلى أقوام خاصة إلا نبينا محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بعث إلى الناس عامة، هذا من جهة ومن جهة أخرى هو رد للشبهة التي تنفي عالميته وشموله للجنس البشري بزعمهم أنه خاص بالعرب.[٦٨]

والدلالة نفسها في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِنْ رَبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس٥٧) قال الثعالبي: ((خُوطِبَ بها جميعُ العَالَمِ،))[٦٩]

والقول نفسه ينطبق على الآية: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي شَكٍّ مِنْ دِينِي فَلَا أَعْبُدُ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَكِنْ أَعْبُدُ اللَّهَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُمْ وَأُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (يونس١٠٤) فهي مخاطبة للناس عامة أجمعين إلى يوم القيامة.

والسياق نفسه نراه ينطبق على الآية (١٠٨) من السورة نفسها: ﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَكُمُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكُمْ فَمَنِ اهْتَدَى فَإِنَّمَا يَهْتَدِي لِنَفْسِهِ وَمَنْ ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا وَمَا أَنَا عَلَيْكُمْ بِوَكِيلٍ﴾، قال الثعالبي:» هذه مخاطبةٌ لجميع الكفّار ومستمرّة مدى الدهر، والْحَقُّ: هو القرآن والشرْعُ الذي جاء به النبيُّ صلّى الله عليه وآله وسلّم.»[٧٠]

أما لفظ (الناس) في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج١) فعموميته واضحة، إذ قال عنه أبو السعود أنه:((خطابٌ يعمُّ حُكمُه المكلفين عند النُّزولِ ومَن سينتظم في سلكهم بعدُ من الموجودين القاصرين عن رتبةِ التكليفِ والحادثين بعدَ ذلك إلى يومِ القيامةِ))[٧١] والقول نفسه نراه ينسحب على الآية ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنْ كُنْتُمْ فِي رَيْبٍ مِنَ

الْبَعْثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ مِنْ نُطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ ثُمَّ مِنْ مُضْغَةٍ مُخَلَّقَةٍ وَغَيْرِ مُخَلَّقَةٍ﴾ إلى آخر الآية (٥) من سورةالحج فهي أيضا لعموم الناس بمن فيهم المشككين في زمن النزول ومن يأتي بعدهم قال الثعالبي: ((هذا احتجاج على العالم بالبدأة الأُولى))[٧٢]

أما الآية المباركة﴿قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّمَا أَنَا لَكُمْ نَذِيرٌ مُبِينٌ﴾ (الحج ٤٩) فالمقصود بها أهل مكة خاصة وعموم الناس عامة، فهو نذير لهم ولغيرهم، ولمن جاء بعدهم لعموم رسالته.[٧٣]

أما قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُبَابًا وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبَابُ شَيْئًا لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ﴾ (٧٣) من السورة نفسها فعموميتها واضحة، وهي تأتي في سياق الإعجاز والتحدي الإلهي للمخلوقين عامتهم يقول الشعراوي: ((وفي هذا المثل تحد للبشرية كلها مضمونه لن تخلقوا الذباب الذي تعدونه مخلوقا تافها ولو اجتمعتم جميعا))[٧٤]

ولا نرى أن لفظ (الناس) المنادى في سورة النمل على لسان سليمان (عليه السلام) يبعد عن العمومية، إذ مما لا شك فيه أن خطاب سليمان كان لعامة الناس، لإعلامهم، وإفادتهم بنعمة الله عليهم، ومن ورائهم نحن، ومن يأتي بعدنا إلى قيام الساعة، ولا يبتعد قولنا هذا عن النداء الوارد في سورة لقمان في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ وَاخْشَوْا يَوْمًا لَا يَجْزِي وَالِدٌ عَنْ وَلَدِهِ وَلَا مَوْلُودٌ هُوَ جَازٍ عَنْ وَالِدِهِ شَيْئًا﴾ (لقمان٣٣)، فهو أيضاً للعمومية، لأنه لا أحد يكون مستغنيا عن التقوى حتى ولو كان نبياً[٧٥].

أما مناداة لفظ (الناس) الوارد في سورة فاطر في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ هَلْ مِنْ خَالِقٍ غَيْرُ اللَّهِ يَرْزُقُكُمْ مِنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ﴾ (الآية٣) فالسياق يدل على

أنه لقريش إلا أنه موجّه لكل كافر.[٧٦]

ونداء الآية المباركة ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (فاطر٥) وكذلك قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ﴾ (الآية١٥) من السورة نفسها، فعموميتها مقطوع بها، فهما آيتا تذكير ووعظ، فالإنسان فقير إلى الله تعالى في دقائق الأمور وجلائلها لا يستغني عنه طرفة عين، وهو مستغن عن كل واحد[٧٧] وقد سبق ذكر ذلك، والناس في فقرهم إلى الله متساوون فكلهم فقراء إليه مؤمنهم وكافرهم، غنيهم وفقيرهم، كبيرهم وصغيرهم، وتعريف الفقراء للمبالغة في فقرهم[٧٨].

وتكرير النداء لتأكيد العظة والتذكير، ومن ثم فهذه النداءات التي تفيد العموم نراها جاءت في سياق الوعظ الإلهي لمخلوقاته. والتكرار أينما كان فغرضه تأكيد الدلالة وتكثيفها، أما دلالة (الناس) الوارد في سورة الحجرات في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ (الآية١٣) فلا يمار أحد في عموميته بفضل موقعيته في السورة بحيث جاء بعد نداءات لأهل الإيمان، فكان طبيعيا أن تختم تلك النداءات بعمومية تذكرهم بأصلهم، ومنشئهم، وأنهم سواسية، فمضمون الآية هو المساواة بين البشر، وألا تفاضل إلا بالتقوى.[٧٩]

ومن الملاحظ أيضاً أن الآيات التي ضمنت النداء في خطاب العموم والشمول والاطراد ركزت على قضايا محورية وهي قضايا إنسانية عامّة، تتصف بها البشرية في أطوارها ومراحلها جميعاً، نجملها لا نفصل القول فيها، أهمها[٨٠]:

قضية الافتقار: الافتقار علّة ذاتية، وسِمَةٌ أصلية، يتصرّف الإنسان في حياته على مقتضاها، وتعرض له الأمور على وفقها ووزنها، وليس له أن يخرج من دائرة الافتقار؛ لتوقف

حياته على هذه السمة.[٨١] فالافتقار سمة متأصلة في الإنسان لا ينفك عنها بمقتضى خلق الله له، وتوقف أموره عليه، والافتقار إحساس داخلي، وحقيقة وجودية تترجمها حاجة الإنسان إلى المأكل، والمشرب، وأمور الحياة كلها. إذ لا يستقل الإنسان بها وحده؛ بل لا بد له من المُعين المساعد، وحتى ما يعرض له من قوة الشباب نجده قوة بين ضعف الطفولة وضعف الشيخوخة، ما يجعل الافتقار سمة بارزة في حياة الإنسان، محيطة به بادية عليه، لا ينفك عنها، وهذا يجعل الإنسان مستطيعا بغيره غير قائم بذاته. وهذه الحقيقة الوجودية التي يشير إليها القرآن في خطاب الناس يؤسس عليها دعوتهم إلى الاستغناء بالإيمان بالله والتوكل عليه ليعوضوا النقص الكامن في الافتقار بما يقابله من الاستغناء بالإيمان.

قضية الاغترار: فالاغترار سمة عارضة، وعلة طارئة سببها الوهم بالغنى والاستقلال، وعدم الاحتياج، والقرآن الكريم، عندما يتحدث عن قضية الاغترار، يربطها باليوم الآخر، وبوعد الله تعالى، في إشارة واضحة إلى أن المغرور لا يتسنى له رؤية الأشياء بوضوح[٨٢].

قضية الاعتبار: الاعتبار هو وعي ذاتي، وآلية إصلاحية داخلية، تميّز بين الافتقار والاغترار، وتؤسس لمعرفة ذاتية وجدانية، تستجيب لدواعي الفطرة وتطلعاتها.[٨٣]

والاعتبار مردّه إلى آليات النظر التي يتسم بها الإنسان، وهي آليات تمنحه حقّ الاختيار، وحرية التفكير. وهذه السّمة هي آلية للتقويم، وأداة للترجيح، بها يتبيّن الإنسان موقعه بين الافتقار والاغترار، وعلى هداها يسير في هذه الحياة، والآيات التي تحدثت على هذه المسألة تبيّن بجلاء، روافد هذا الاعتبار، وهي، عند التأمل، راجعة إلى مدارك العقول، التي يشترك فيها الخلق جميعاً، ووصفت هذه الروافد بصفات عليّة منها: النور، والبرهان،

والهدى، والرحمة، والشفاء، والموعظة، وهذه الصفات تدور في فلك البيان والتبيُّن، وقد أبرزها القرآن في معرض التعميم؛ ليبيّن أن الدعوة القرآنية تقوم على هذه الأسس، وتتسم بهذه السمات التي تجعلها، عند التأمل من الإنسان المُخاطب، موضع اعتبار.(٨٤)

المبحث الثالث: التركيب القرآني﴿يا أيها الإنسان﴾

استثمر القرآن الكريم في خطاباته جميع التراكيب اللغوية(٨٥) التي أراد أن يوجه عباده إليها من أجل أن يكون خطابه عاماً شاملاً يشمل جميع أفراد البشر؛ فههنا يخاطب مرة أخرى بالتركيب﴿يا أيها الإنسان﴾، وقد بيّنا سابقا لماذا جاء بالأداة (يا) النداء مع أداة الوصل(أي) المنادى وهي نكرة مقصودة مبنية على الضم في محل نصب مع هاء التنبيه، ثم جاء بلفظة (الإنسان) وهو بدل من أداة الوصل.

وقيل في علة تسمية الإنسان إنساناً، لأَنه عهد إِليه فَنَسِيَ، والإِنسانُ أَصله إِنْسِيانٌ (إِفْعِلانٌ) من النِّسْيان؛ لأَن العرب جميعهم قالوا في تصغيره: أُنَيْسِيانٌ فحذفت الياء الأخيرة في تكبيره لكثرة استعمالها في كلامهم، والواحدُ إِنْسِيٌّ وأُناسٌ.(٨٦)

ومما جاء في لسان العرب:((والأَنَسُ أَيضاً لغة في الإِنْس...والأَنَسُ خلاف الوَحْشَةِ... والإِنْسِيُّ منسوب إِلى الإِنْس... والإِنسانُ أَيضاً إِنسان العين وجمعه أَناسِيُّ وإِنسانُ العين المِثال الذي يرى في السَّواد.. قال الأَزهري وأَصل الإِنْسِ والأَنَسِ والإِنسانِ من الإِيناسِ وهو الإِبْصار ويقال آنَسْتُه وأَنَّسْتُه أَي أَبصرته))(٨٧)

واختلف في اشتقاق لفظة الإنسان فبعضهم قال من الإيناس، وهو الإبصار والعلم والإحساس لوقوفه على الأَشياءِ بطريق العلم، وقيل: اشتقاقه من النَوْس بمعنى التَّحرك؛ سمّي لتحرّكه في الأُمور العظام، وتصرُّفه في الأَحوال المختلفة(٨٨)

وذكر الفيروزآبادي (ت٨١٧هـ)[٨٩] أنه سُمِّي إِنساناً لأُنْسه بجنْسه، فالإِنسان من اجْتَمَع فيه إِنسان أُنْسه بالغَيْر وأُنْسِ الغَيْرِ به، وقيل: اشتقاق من النَّوْسِ وهو الحركَة لكثرة حَرَكَته فيما يَتَحَرّاه، وقيل: من الإِيناس وهو الإِبْصارُ، لأَنَّه ببَصرِه الظَّاهر وبَصِيرَته الباطنة يَرَى رُشْدَه ويَصِل إِليه.

والألف واللام فِي الْإِنْسانُ تَعْرِيفُ الْجِنْسِ وَهُوَ لِلاسْتِغْرَاقِ، وَعَلَى ذَلِكَ حَمَلَهُ جُمْهُورُ الْمُفَسِّرِينَ، أَيْ لَيْسَ الْمُرَادُ منه إِنْسَانًا مُعَيَّنًا، وَقَرِينَةُ ذَلِكَ سِيَاقُ الْكَلَامِ مَعَ قَوْلِهِ عَقِبَهُ[٩٠]. كَمَا دَلَّ عَلَيْهِ التَّفْصِيلُ فِي قَوْلِهِ: ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتابَهُ بِيَمِينِهِ﴾ إِلَى قَوْلِهِ: ﴿كانَ بِهِ بَصِيراً﴾ (الانشقاق ١٥).

والبنية الندائية في التركيب ﴿يا أيها الإنسان﴾ مكونة من مركب أداتي مذكور(يا) وهو العنصر الوحيد الذي يتسم بالثبات في البنى الندائية القرآنية، فهو غير قابل للاستبدال، مع مركب اسمي منادى مكون من تركيب وصفي(أيها) أي من تابع ومتبوع، مع مكون مركّب اسمي ملحق أو مكمل بالتبعية (عطف بنوعيه، بدل، توكيد، نعت)، والنحاة ينصون في هذا المجال على أن ما كان بعد(أي) جامدا يعرب عطف بيان، أو بدل.[٩١]

وعده الزركشي (ت٧٩٤هـ) في البرهان من باب خطاب يعمّ كل إنسان، وهو خطاب العام والمراد به العموم من باب التوسع الدلالي للنداء القرآني، والمراد به توجهه لعموم الناس مؤمنيهم وكافريهم، فالنداء هنا خرج أصله في طلب إلى معنى العمومية.[٩٢] أو هو خطاب الجمع بلفظ الواحد فالخطاب في الاثنين لجميع الناس، ولكنه جاء في صيغة المفرد، فكان هذا من باب التوسع الدلالي.[٩٣]

وجاءت لفظة (الإنسان) منفردة أربعاً وخمسين مرة في القرآن الكريم، وجاءت ضمن تركيب النداء ﴿يا أيها الإنسان﴾ مرتين، في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾

(الإنفطار٦)، وفي قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق٦).

ففي الآية الأولى» اسْتِئْنَافٌ ابْتِدَائِيٌّ لِأَنَّ مَا قَبْلَهُ بِمَنْزِلَةِ الْمُقَدِّمَةِ لَهُ لِتَهْيِئَةِ السَّامِعِ لِتَلَقِّي هَذِهِ الْمَوْعِظَةِ لِأَنَّ مَا سَبَقَهُ مِنَ التهويل والإنذار يهيئ النَّفْسَ لِقَبُولِ الْمَوْعِظَةِ إِذِ الْمَوْعِظَةُ تَكُونُ أَشَدَّ تَغَلْغُلًا فِي الْقلب حِينَئِذٍ لِمَا يَشْعُرُ بِهِ السَّامِعُ مِن انْكِسَارِ نَفْسِهِ وَرِقَّةِ قَلْبِهِ فَيَزُولُ عَنْهُ طُغْيَانُ الْمُكَابَرَةِ وَالْعِنَادِ فَخَطَرَ فِي النُّفُوسِ تَرَقُّبُ شَيْءٍ بَعْدَ ذَلِكَ».[٩٤]

وأما النداء الذي جاء لِلتَّنْبِيهِ فكان تَنْبِيهًا يُشْعِرُ بِالِاهْتِمَامِ بِالْكَلَامِ وَالِاسْتِدْعَاءِ لِسَمَاعِهِ فَلَيْسَ النِّدَاءُ مُسْتَعْمَلًا فِي حَقِيقَتِهِ إِذْ لَيْسَ مُرَادًا بِهِ طَلَبُ إِقْبَالٍ وَلَا هُوَ مُوَجَّهٌ لِشَخْصٍ مُعَيَّنٍ أَوْ جَمَاعَةٍ مُعَيَّنَةٍ بَلْ مِثْلُهُ يَجْعَلُهُ الْمُتَكَلِّمُ مُوَجَّهًا لِكُلِّ مَنْ يَسْمَعُهُ بِقَصْدٍ أَوْ بِغَيْرِ قَصْدٍ.[٩٥] وهذا ما سعت إليه آلية الخطاب في القرآن الكريم.

فضلاً عن أن هذا الْعُمُومُ مُرَادٌ بِهِ الَّذِينَ أَنْكَرُوا الْبَعْثَ بِدَلَالَةِ وُقُوعِهِ عَقِبَ الْإِنْذَارِ بِحُصُولِ الْبَعْثِ وَيَدُلُّ عَلَى ذَلِكَ قَوْلُهُ بَعْدَهُ: ﴿بَلْ تُكَذِّبُونَ بِالدِّينِ﴾ (الانفطار ٩) فَالْمَعْنَى: يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ الَّذِي أَنْكَرَ الْبَعْثَ وَلَا يَكُونُ مُنْكِرُ الْبَعْثِ إِلَّا مُشْرِكًا لِأَنَّ إِنْكَارَ الْبَعْثِ وَالشِّرْكَ مُتَلَازِمَانِ يَوْمَئِذٍ فَهُوَ مِنَ الْعَامِّ الْمُرَادِ بِهِ الْخُصُوصُ بِالْقَرِينَةِ أَوْ مِنَ الِاسْتِغْرَاقِ الْعُرْفِيِّ لِأَنَّ جُمْهُورَ المخاطبين فِي ابْتِدَاءِ الدَّعْوَةِ الْإِسْلَامِيَّةِ هُمُ الْمُشْرِكُونَ.[٩٦]

إذاً الوحدة الدلالية (الإنسان) في قوله تعالى:﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ﴾ (الإنفطار٦)، جاءت في سياق الإنكار على منكري البعث من كفار قريش وإن كانت تعني الوليد بن المغيرة أو أبي بن خلف؛ فإن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب كما يقول الأصوليون ومن ثم فدلالة العموم تصير واضحة، تشمل منكري البعث في زمن النزول، ومن بعده من

منكري البعث الجدد- في زمن التلقي- في كل عصر وفي كل مصر.[٩٧]

والاغترار سبب مانع، وعلّة صارفة، تصرف الناس عن ملاحظة افتقارهم، وتأمّل حالهم، وتجعلهم يتوهمون أنهم مستقلون أغنياء، لا حاجة بهم إلى غيرهم، ولا افتقار لهم إلى أحد.[٩٨]

ومن الملفت للنظر أن العلامة الزمخشري يربط بين الاغترار من الإنسان والكرم من رب العزة وذلك في قوله: «كيف طابق الوصف بالكرم إنكار الاغترار به، وإنما يغتر بالكريم، كما يروى عن علي (رضي الله عنه) أنه صاح بغلام له كرّات فلم يلبه، فنظر فإذا هو بالباب، فقال له: مالك لم تجبني؟ قال: لثقتي بحلمك وأمنى من عقوبتك، فاستحسن جوابه وأعتقه. وقالوا: من كرم الرجل سوء أدب غلمانه. قلت: معناه أنّ حق الإنسان أن لا يغتر بتكرم الله عليه، حيث خلقه حيا لينفعه، وبتفضله عليه بذلك كي يطمع بعد ما مكنه وكلفه فعصى وكفر النعمة المتفضل بها أن يتفضل عليه بالثواب وطرح العقاب، اغترارا بالتفضل الأوّل، فإنه منكر خارج من حد الحكمة.»[٩٩]

ودلالة ﴿مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ﴾ اسْتِفْهَامِيَّةٌ عَنِ الشَّيْءِ الَّذِي غَرَّ الْمُشْرِكَ فَحَمَلَهُ عَلَى الْإِشْرَاكِ بِرَبِّهِ وَعَلَى إِنْكَارِ الْبَعْثِ. وَالِاسْتِفْهَامُ مَجَازٌ فِي الْإِنْكَارِ وَالتَّعْجِيبِ مِنَ الْإِشْرَاكِ بِاللهِ، أَيْ لَا مُوجِبَ لِلشِّرْكِ وَإِنْكَارِ الْبَعْثِ إِلَّا أَنْ يَكُونَ ذَلِكَ غُرُورًا غَرَّهُ عَنَّا كِنَايَةً عَنْ كَوْنِ الشِّرْكِ لَا يَخْطُرُ بِبَالِ الْعَاقِلِ إِلَّا أَنْ يغره بِهِ غَار، فَيُحْتَمَلُ أَنْ يَكُونَ الْغرُور مَوْجُودا وَيحْتَمل أَنْ لَا يكون غرُورًا.[١٠٠]

وَالْغُرُورُ: يراد به الْإِطْمَاعُ بِمَا يَتَوَهَّمُهُ الْمَغْرُورُ نَفْعًا وَهُوَ ضُرٌّ، وَفِعْلُهُ قَدْ يُسْنَدُ إِلَى اسْمِ ذَاتِ الْمُطْمَعِ حَقِيقَةً مِثْلَ: ﴿وَلَا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لُقْمَان ٣٣) أَوْ مَجَازًا نَحْوَ: ﴿وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا﴾ (الجاثية ٣٥) فَإِنَّ الْحَيَاةَ زَمَانُ الْغُرُورِ، وَقَدْ يُسْنَدُ إِلَى اسْمِ مَعْنًى مِنَ الْمَعَانِي

حَقِيقَةً نَحْوَ: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلادِ﴾ (آل عمران ١٩٦). أَوْ مَجَازًا نَحْوَ قَوْلِهِ تَعَالَى:﴿زُخْرُفَ الْقَوْلِ غُرُوراً ﴾ (الْأَنْعَام ١١٢). وَيَتَعَدَّى فِعْلُهُ إِلَى مَفْعُولٍ وَاحِدٍ، وَقَدْ يُذْكَرُ مَعَ مَفْعُولِهِ اسْمُ مَا يتَعَلَّق الْغرُور بشؤونه فَيَعَدَّى إِلَيْهِ بِالْبَاءِ، وَمَعْنَى الْبَاءِ فِيهِ الْمُلَابَسَةُ كَمَا فِي قَوْلِهِ: ﴿ وَلا يَغُرَّنَّكُمْ بِاللَّهِ الْغَرُورُ﴾ (لُقْمَان: ٣٣)[١٠١]

وذكرنا سابقا أن المغرور لا يتسنى له رؤية الأشياء بوضوح؛ لأنّ غفلته التي أوجبها اغتراره تمنعه من معرفة الأشياء على وجهها وطبيعتها، وتجعله يعيش في حياة ملؤها الوهم والخداع، يغترُ بما له من القوة الفكرية، أو الجسدية، وينسى أن هذه قوّة عارضة كونها قوّة مكتسبة، وهذه السّمَة مناقضة لسمة الافتقار، فإذا كان الافتقار يورث اليقظة، والإقبال، ومعرفة القصد، فإن الاغترار يورث الغفلة، والإدبار، وجهل القصد.[١٠٢]

أما دلالة العموم في الآية الثانية في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (الانشقاق٦)، فإنها جاءت في سياق التحذير من عقاب الله؛ فمؤكدة أيضا من السياق المقالي الذي يحيط بالتركيب، إذ سبق بـ ﴿وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (٢)، وأتبع بتوكيده ﴿إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلَاقِيهِ﴾ (٦)، وهي عناصر تدل على حتمية نهاية الكائن الحي، قال القرطبي (ت٦٧١هـ): ((المراد بالإنسان الجنس أي يا بن آدَمَ.))[١٠٣] وقول القرطبي هذا يكون دليلا لنا على صحة تصنيفنا لهذه الألفاظ تحت مجال دلالي واحد، وفي مجموعة دلالية واحدة[١٠٤] .

وَيُطْلَقُ الْكَدْحُ عَلَى مَعَانٍ كَثِيرَةٍ وحَقِيقَتَهُ إِتْعَابُ النَّفْسِ فِي الْعَمَلِ وَالْكَدِّ. وَتَعْلِيقُ مَجْرُورِهِ فِي هَذِهِ الْآيَةِ بِحَرْفِ (إِلَى) تُؤْذِنُ بِأَنَّ الْمُرَادَ بِهِ عَمَلٌ يَنْتَهِي إِلَى لِقَاءِ الله فَيَجُوزُ أَنْ يُضَمَّنَ كادِحٌ مَعْنَى سَاعٍ لِأَنَّ كَدْحَ النَّاسِ فِي الْحَيَاةِ يَتَطَلَّبُونَ بِعَمَلِ الْيَوْمِ عَمَلًا لغد وَهَكَذَا، وَذَلِكَ يَتَقَضَّى بِهِ زَمَنُ الْعُمُرِ

الَّذِي هُوَ أَجَلُ حَيَاةِ كُلِّ إِنْسَانٍ، وَيَعْقُبُهُ الْمَوْتُ الَّذِي هُوَ رُجُوعُ نَفْسِ الْإِنْسَانِ إِلَى مَحْضِ تَصَرُّفِ اللهِ، فَلَمَّا آلَ سَعْيُهُ وَكَدْحُهُ إِلَى الْمَوْتِ جُعِلَ كَدْحُهُ إِلَى رَبِّهِ. فَكَأَنَّهُ قِيلَ: إِنَّكَ كَادِحٌ تَسْعَى إِلَى الْمَوْتِ وَهُوَ لِقَاءُ رَبِّكَ.(١٠٥)

وختاما نقول إن هذا المقام التواصلي العام، يؤكده القرآن الكريم، عن طريق استثماره مرجعيات عامّة في الخطاب، ما يؤهل الخطاب لينتقل عبر المخاطبين، والزمان، والمكان. ولذلك يبني الخطاب القرآني دعوته وفق الأطر المعرفية العامّة، وعلى أساسها يجردّ من المقام التواصلي الخاصّ مقاماً تواصلياً عامًاً يشترك في التفاعل معه كلّ الناس. ثم أن المطالب المتضمنة في آيات النداء يُنظر إليها، في السياق الطلبي ومن ثم السياق التداولي، بوصفها أفعالاً كلامية تختزل في بنيتها الأبعاد التداولية والسياقية، وهذه الأفعال تنجز وفق قواعد قد تعلمها كل شريك لغوي، عن طريق محيطه الاجتماعي، تعلُّماً تاماً، ويمتلك الشركاء في التواصل اللغوي معرفة مشتركة بالقواعد، والشروط الخاصّة بالتواصل، ويمكن للمتلقي بناءً على تلك القواعد والشروط السارية عُرفيا، التوصُّل إلى طريقة الفهم، التي يطمح إليها المتكلم.(١٠٦)

الخاتمة:

بعد أن انتهينا من البحث، نعرض هنا أهم ما جاء فيه من نتائج:

١- أصّل البحث لمصطلح العالمية وبيّن أنها تعني اتصاف متعلّقها بالقدرة الفاعلة لتحقيق مبادئه للعالم كله؛ على نحو لا تستبطن إلغاء الهويات المحلية للشعوب المختلفة.

٢- ذكر البحث أن عالمية الإسلام ممثلة بالقرآن الكريم تؤكد أن خصوصيات تلك المجتمعات مسلمة كانت أم غير مسلمة محترمة؛ لما تتسم به العقيدة الإسلامية من سماحة برفعها شعار﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾.

٣- وضّح البحث أن النداء علامة من علامات التواصل بين الناس، وهو

دليل قوي على اجتماعية اللغة، ومن ثم فهو كثير الاستعمال، ولا يكاد يخلو كلام إنسان كل يوم من النداء؛ لذلك كان للنداء أسلوب خاص.

٤- إن للنداء تركيبا خاصا اختلف في شأنه اللغويون؛ فهو تركيب لأنه لا يفيد معنى كاملا حين نقف عليه، وهي تتكون من حرف للنداء ومنادى، والجملة المعروفة لا تتكون من حرف واسم فقط، ولا بد أن يكون فيها إسناد بين اسم واسم أو بين فعل واسم.

٥- إن الخطاب القرآني عالمي، فهو يستوعب حياة الناس جميعا، وحينما شرع الله هذه الشريعة جعلها للناس كافة في الأرض كل الأرض، وفي كل زمان إلى يوم الدين، فهو خطاب يستوعب الحياة بأكملها، لأنه خطاب قادر على استيعاب خصوصيات الناس وسائر أنماط حياتهم الثقافية والاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية...إلخ. كما أنه خطاب معجز، فهو ليس كأي خطاب؛ لأنه مطلق يستوعب الإنسان والمجتمع والواقع أي واقع، ويتجاوزه ليستوعبه بما يحمل من قدرات الخطاب المهيأ لذلك.

٦- وضح البحث أن لأسلوب النداء أهمية كبيرة في المنظومة اللغوية العربية، وتتجلى أهميته في الأثر الذي يتركه في الحياة البشرية، ووظيفته في عملية التواصل بينهم، والتواصل لا يتم إلا إذا كان هنالك تخاطب، فإن النداء أحد أدوات هذا التخاطب؛ لأنه يجسد عملية التخاطب.

٧- نلاحظ أن القرآن الكريم يبدع في استعمال الأدوات ولاسيما الأداة(يا) التي هي للنداء إذ يستعملها بدلالات مختلفة ومعان متعددة بحسب السياق الذي توضع فيه.

٨- أظهر البحث بنية النداء المختلفة كونها وسيلةً للتواصل بين المتكلم والمتلقي في الخطاب القرآني، والتي تدل على عالمية الخطاب، واختلفت تلك البنى فكانت ﴿يَا بَنِي آدَمَ﴾، و﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ و﴿يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ﴾.

٩- كشف البحث أن الخطاب القرآني في التركيب﴿ يَا بَنِي آدَمَ﴾ استثمر جميع طاقاته اللغوية المختلفة في الخطاب؛ لأن اللغة نظام يتألف من مجموعة من عناصر، كل عنصر يؤدي وظيفته داخل النظام، وكل عنصر يدل على العنصر الآخر.

١٠- خطاب الناس في القرآن ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ يتأسس على رؤية شاملة دقيقة، وتقوم مضامينه على خصائص كونية يشترك فيها كلّ إنسان، فعندما يخاطب القرآن العربي والعجمي، فهو يخاطبهم بالمشترك الجامع، فيفهمه كلّ متلقٍّ، ويعي عنه كل سامع، لأنه يُخاطب أصل الإنسانية في كل إنسان.

١١- إن الآيات التي ضمنت النداء في خطاب العموم والشمول والاطراد ركزت على قضايا محورية وهي قضايا إنسانية عامّة، تتصف بها البشرية في أطوارها ومراحلها جميعاً منها قضية الافتقار والاغترار والاعتبار.

١٢- انتهى البحث إلى أن المطالب المتضمنة في آيات النداء يُنظر إليها، في السياق الطلبي ومن ثم السياق التداولي، بوصفها أفعالاً كلامية تختزل في بنيتها الأبعاد التداولية والسياقية، وهذه الأفعال تنجز وفق قواعد قد تعلمها كل شريك لغوي، عن طريق محيطه الاجتماعي، تعلُّماً تاماً، ويمتلك الشركاء في التواصل اللغوي معرفة مشتركة بالقواعد، والشروط الخاصّه بالتواصل، ويمكن للمتلقي بناءً على تلك القواعد والشروط السارية عُرفيا، التوصُّل إلى طريقة الفهم، التي يطمح إليها المتكلم.

الهوامش:

١- هي مصدر صناعي لا يعتد بفصاحته لغة.

٢- معاني القرآن وإعرابه: ١/ ٤٦.

٣- تهذيب اللغة ٢/ ٢٥٣ مادة "علم".

٤- لسان العرب ١٢/ ٤٢٠ مادة " علم".

٥- ينظر: عالمية الرسول والرسالة بديلا عن عولمة الحضارة الغربية ١٧٨ -١٧٩.

٦- ينظر: عالمية الرسول والرسالة بديلا عن عولمة الحضارة الغربية ١٧٩.

٧- الموسوعة العربية العالمية: العالمية، اللغة، وينظر: عالمية الرسول والرسالة بديلا عن عولمة الحضارة الغربية ١٧٨.

٨- ينظر: عالمية الرسول والرسالة بديلا عن عولمة الحضارة الغربية١٨٠، العولمة؛ ماهيتها ونشوئها وتأثيرها الاقتصادي:١٠٦.

٩- لسان العرب ١/ ٤٢٨ مادة "ركب".

١٠- لسان العرب ١/ ٤٣٢-٤٣٣ مادة "ركب".

١١- ينظر: التعريفات ٥٦.

١٢- الحدود في علم النحو أحمد الأبذي ٤٣٥.

١٣- رسالة منازل الحروف ٧٠.

١٤- مختار الصحاح ٦٥٣.

١٥- لسان العرب ١٥/ ٣١٤ مادة "ندى".

١٦- ينظر: شرح الرضي على الكافية ١/ ١٤١، معاني النحو٤/ ٣٢٠.

١٧- النحو الوافي ٤/ ١٠.

١٨- جواهر البلاغة ٧٠، وينظر: أساليب بلاغية ١٠٧.

١٩- ينظر: علم المعاني ١٢٩، الأساليب الإنشائية في النحو العربي ١٨.

٢٠- الايضاح ١٣. وينظر: الأساليب الإنشائية في النحو العربي ١٣ وما بعدها.

٢١- ينظر: النداء في القرآن ٣٣.

٢٢- التطبيق النحوي ٢٧٦.

٢٣- عالمية الخطاب القرآني ٥٥

٢٤- مسند أحمد ٣٨/ ٤٧٤. رقم الحديث (٢٣٤٨٩).

٢٥- نقلا عن العولمة والمواطنة والهوية ٢٥٩.

٢٦- خطاب الناس في القرآن الكريم ٦.

٢٧- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ٦.

٢٨- ينظر: النداء في القرآن ٢.
٢٩- ينظر: النداء في القرآن ٤.
٣٠- سورة البقرة الآية ٣٣و٣٥ وسورة طه الآية ١١٧و١٢٠.
٣١- سورة البقرة الآية ٥٥و٦١، وغيرها كثير.
٣٢- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز٦/ ٢٢.
٣٣- كيف تتعامل مع القرآن٢١٦، وينظر: دلالة الخطاب القرآني دراسة في ضوء تعدد الأوجه النحوية٣١.
٣٤- ينظر: النداء في القرآن ٣٣.
٣٥- ينظر: النداء في القرآن ١٩٦-١٩٧.
٣٦- ينظر: النداء في القرآن ١٩٩-٢٠١.
٣٧- ينظر: التحرير والتنوير ٨ / ٧٢.
٣٨- ينظر: النداء في القرآن٢٨٢.
٣٩- الجامع لأحكام القرآن ٧/ ١٨٩.
٤٠- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٣/ ٢٢.
٤١- المصدر السابق ٣/ ١٧.
٤٢- الجواهر الحسان في تفسير القرآن ٣/ ١٩.
٤٣- المصدر السابق ٣/ ٢٧.
٤٤- ينظر: النداء في القرآن ٢٩٥.
٤٥- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ١٦.
٤٦- ينظر: الكتاب ٢/ ١٩٧.
٤٧- الكشاف١/ ٨٩.
٤٨- ينظر: معجم مقاييس اللغة ٥/ ٣٦٩ مادة "نوس".
٤٩- ينظر: لسان العرب ٦/ ٢٤٥ مادة "نوس".
٥٠- ينظر: المفردات في غريب القرآن ٥٣٢.
٥١- ينظر: لسان العرب ٦/ ١٠مادة "أنس"، تاج العروس ١٥/ ٤١١ مادة "أنس".
٥٢- ينظر: التحرير والتنوير١/ ٣٢٥.
٥٣- معاني النحو ٤/ ٣٣٠.
٥٤- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم١٧.
٥٥- المصدر السابق ٦.
٥٦- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ٨.
٥٧- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ١٢.
٥٨- البرهان ٢/ ٢٢٦، وينظر: النداء في القرآن ٢٧٧.

٥٩- الألسنية العربية ٧٧، النداء في القرآن الكريم١٩٩-٢٠٥.

٦٠- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ٧.

٦١- التحرير والتنوير ١/ ٣٢٥.

٦٢- خطاب الناس في القرآن الكريم ٨، وينظر: الكشاف ١/ ١٢١، والبحر المحيط١/ ٢٣٢.

٦٣- التفسير القرآني للقرآن١/ ٤٠

٦٤- التفسير القرآني للقرآن١٣/ ٤٥٢.

٦٥- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ٩-١٢.

٦٦- ينظر: النداء في القرآن ٢٩٢.

٦٧- غرائب القرآن ورغائب الفرقان ٣/ ٣٣٠هـ.

٦٨- ينظر: النداء في القرآن٢٩٣، عالمية الخطاب القرآني ٦٠.

٦٩- الجواهر الحسان ٣/ ٢٥١.

٧٠- الجواهر الحسان ٣/ ٢٧٠.

٧١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم٦/ ٩١.

٧٢- الجواهر الحسان / ١٠٩.

٧٣- ينظر: النداء في القرآن ٢٩٣.

٧٤- معجزة القرآن ٣/ ٢٦٣، ينظر: النداء في القرآن ٢٩٤.

٧٥- ينظر: النداء في القرآن ٢٩٤.

٧٦- ينظر: الجواهر الحسان ٤/ ٣٨٢.

٧٧- ينظر: المصدر السابق٤/ ٣٨٦.

٧٨- ينظر: تفسير أبي السعود٧/ ١٤٨، الكشاف٣/ ٢٧٢.

٧٩- النداء في القرآن الكريم ٢٩٤.

٨٠- خطاب الناس في القرآن الكريم ٩ وما بعدها.

٨١- ينظر: المصدر السابق ١١.

٨٢- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم١١.

٨٣- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ١٢.

٨٤- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ١١.

٨٥- ثمة تراكيب خطاب للنداء غير صريحة لم نعرض لها منها (آلا + الفعل أو الاسم)، وكذا ما كانت أداة النداء فيه غير منصوص على النداء بها نحو (ألا يسجدوا لله) في بعض القراءات (ألا يا آسجدوا) لأنها ليست من دواعي البحث. ينظر: دراسات لأسلوب القرآن الكريم ٣/ ٦١١، الأساليب الإنشائية في النحو العربي ١٣٩-١٤٢.

٨٦- ينظر: لسان العرب ٦/ ١٠ مادة

" أنس".

٨٧- لسان العرب ٦/ ١٠ مادة " أنس".

٨٨- ينظر: لسان العرب ١٥/ ٤٢٣ مادة " أنس"، بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣٢، ٦/ ٢٢.

٨٩- ينظر: بصائر ذوي التمييز ٢/ ٣١- ٣٢، ٦/ ٢٢.

٩٠- ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٤.

٩١- ينظر: النداء في القرآن الكريم١٩٩- ٢٠٥.

٩٢- البرهان ٢/ ٢١٧، وينظر: النداء في القرآن الكريم ٢٧٦.

٩٣- ينظر: النداء في القرآن الكريم ٢٧٩.

٩٤- التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٣. الآيات السابقة المراد منها قوله تعالى: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْفَطَرَتْ (١) وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انْتَثَرَتْ (٢) وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ (٣) وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ (٤) عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ(٥)﴾.

٩٥- ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٣.

٩٦- ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٣.

٩٧- ينظر: مدارك التنزيل وحقائق التأويل ٤/ ٣٣٧، مباحث في علوم القرآن٢٢١، النداء في القرآن الكريم٢٩٦.

٩٨- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ١١.

٩٩- الكشاف٤/ ٧١٥.

١٠٠- ينظر: التحرير والتنوير ٣٠/ ١٧٣.

١٠١- ينظر: التحرير والتنوير٣٠/ ١٧٤.

١٠٢- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم١١.

١٠٣- الجامع لأحكام القرآن ١٩/ ٢٧١.

١٠٤- ينظر: النداء في القرآن الكريم ٢٩٦.

١٠٥- ينظر: التحرير والتنوير٣٠/ ٢٢١.

١٠٦- ينظر: خطاب الناس في القرآن الكريم ١٣.

المصادر والمراجع:

خير ما نبتدئ به:

القرآن الكريم

١- إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم: أبو السعود العمادي محمد بن محمد بن مصطفى (ت ٩٨٢هـ)، دار إحياء التراث العربي – بيروت.

٢- أساليب بلاغية الفصاحة -البلاغة -المعاني: الدكتور أحمد مطلوب أحمد الناصري الصيادي الرفاعي، وكالة المطبوعات – الكويت الطبعة الأولى، ١٩٨٠م.

٣- الأساليب الإنشائية في النحو العربي: عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي بمصر، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.

٤- الألسنية العربية: ريمون طحان، دار الكتاب اللبناني، بيروت، الطبعة ٢ السنة١٩٨١ م.

٥- الإيضاح في علوم البلاغة: الخطيب جلال الدين محمد بن عبد الرحمن القزويني، تحقيق: لجنة بإشراف محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة.

٦- البحر المحيط في التفسير: أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي (ت ٧٤٥هـ)، تحقيق: صدقي محمد جميل، دار الفكر – بيروت، ١٤٢٠ هـ.

٧- البرهان في علوم القرآن: بدر الدين محمد بن عبد الله بن بهادر الزركشي (ت ٧٩٤هـ)، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار إحياء الكتب العربية عيسى البابي الحلبي وشركائه، الطبعة: الأولى، ١٣٧٦هـ – ١٩٥٧م.

٨- بصائر ذوي التمييز في لطائف الكتاب العزيز: الفيروز آبادي (ت٨١٧هـ)، تحقيق: الأستاذ محمد علي النجار، المكتبة العلمية لبنان – بيروت.

٩- التحرير والتنوير: محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (ت ١٣٩٣هـ)، الدار التونسية للنشر – تونس، ١٩٨٤ هـ.

١٠- التطبيق النحوي: الدكتور عبده الراجحي، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.

١١- التفسير القرآني للقرآن: عبد الكريم يونس الخطيب (ت بعد ١٣٩٠هـ)، دار

الفكر العربي – القاهرة.
١٢- تهذيب اللغة: أبو منصور محمد بن أحمد الأزهري، تحقيق: محمد عوض مرعب، دار إحياء التراث العربي، بيروت الطبعة الأولى ٢٠٠١م.
١٣- الجامع لأحكام القرآن: شمس الدين القرطبي (ت٦٧١هـ)، تحقيق: أحمد البردوني، وإبراهيم أطفيش، دار الكتب المصرية – القاهرة، الطبعة: الثانية، ١٣٨٤هـ – ١٩٦٤ م.
١٤- جواهر البلاغة في المعاني والبيان والبديع: أحمد بن إبراهيم بن مصطفى الهاشمي (ت ١٣٦٢هـ)، ضبط وتدقيق وتوثيق: د. يوسف الصميلي المكتبة العصرية، بيروت.
١٥- الجواهر الحسان في تفسير القرآن: أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (ت٨٧٥هـ)، تحقيق: الشيخ محمد علي معوض والشيخ عادل أحمد عبد الموجود، دار إحياء التراث العربي – بيروت، الطبعة الأولى – ١٤١٨ هـ.
١٦- الحدود في علم النحو: شهاب الدين الأندلسي الأُبَّذيُّ (ت ٨٦٠هـ)، تحقيق: نجاة حسن عبد الله نولي الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة، الطبعة: العدد ١١٢ السنة ٣٣، ١٤٢١هـ-٢٠٠١م.
١٧- خطاب الناس في القرآن الكريم قراءة في نوعية المضامين وأفاقها: عدنان إجانة، ألقيت هذه الورقة في ندوة: (الشريعة في أفق إنساني: الثابت والمتحول؟)، المنعقدة بالرباط بتاريخ ١١ – ١٢ أبريل ٢٠١٥، تنسيق: د. امحمد جبرون ود. صابر مولاي أحمد. مؤسسة مؤمنون بلا حدود للدراسات والأبحاث ٢٠١٧.
١٨- دراسات لأسلوب القرآن الكريم: محمد عبد الخالق عضيمة (ت١٤٠٤هـ)، تصدير: محمود محمد شاكر، دار الحديث، القاهرة.
١٩- دلالة الخطاب القرآني دراسة في ضوء تعدد الأوجه النحوية: أحمد عبد الله نوح، أطروحة دكتوراه، كلية التربية للعلوم الإنسانية/ جامعة البصرة ٢٠١٨م.
٢٠- رسالة منازل الحروف: علي بن عيسى بن علي بن عبد الله، أبو الحسن الرماني المعتزلي (ت ٣٨٤هـ)، الطبعة: الثالثة – ١٤١٤هـ.

٢١- شرح الرضي على الكافية: الرضي الاستراباذي، العامرة، ١٢٧٥.

٢٢- عالميّة الرسول والرسالة بديلا عن عولمة الحضارة الغربية: الأستاذ الدكتور حسن عبد الغني الأسدي، (بحث منشور في مجلة العميد الفصلية المحكمة التي تصدرها العتبة العباسية المقدسة)، العدد الخاص(٢) السنة الثانية١٤٣٤هـ/ ٢٠١٣م.

٢٣- عالمية الخطاب القرآني: الشيخ الدكتور ناصر بن سليمان العمر، (بحث نشر في كتاب ((رسالة القرآن)) بمشاركة نخبة من الباحثين والكتاب/ إدارة البحوث والدراسات الإسلامية بوزارة الأوقاف الإسلامية بدولة قطر، الطبعة الأولى، ربيع الأول١٤٣١هـ- شباط ٢٠١٠م.

٢٤- علم المعاني: الدكتور عبد العزيز عتيق عبد العزيز عتيق (ت ١٣٩٦ هـ)، دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى، ١٤٣٠ هـ - ٢٠٠٩ م.

٢٥- العولمة؛ ماهيتها ونشوئها وتأثيرها الاقتصادي: أ.د. هلال إدريس مجيد، مقابسات، العدد٥ ٢٠٠٥.

٢٦- غرائب القرآن ورغائب الفرقان: نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين القمي النيسابوري (ت٨٥٠هـ)، تحقيق: الشيخ زكريا عميرات، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى - ١٤١٦هـ.

٢٧- كتاب التعريفات: علي بن محمد بن علي الزين الشريف الجرجاني (ت٨١٦هـ)، تحقيق: ضبطه وصححه جماعة من العلماء بإشراف الناشر، دار الكتب العلمية بيروت -لبنان، الطبعة: الأولى ١٤٠٣هـ -١٩٨٣م.

٢٨- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل: أبو القاسم محمود بن عمرو بن أحمد، الزمخشري جار الله (ت ٥٣٨هـ)، دار الكتاب العربي - بيروت، الطبعة: الثالثة -١٤٠٧ هـ.

٢٩- كيف تتعامل مع القرآن: محمد الغزالي، إشراف عام: دالة محمد إبراهيم، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة السابعة ٢٠٠٥م.

٣٠- لسان العرب: جمال الدين ابن منظور الأنصاري الرويفعي الإفريقي

(ت ٧١١هـ)، دار صادر – بيروت.
٣١- مباحث في علوم القرآن: الشيخ مناع خليل القطان، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة٨، ١٤٠١هـ-١٩٨١م.
٣٢- مختار الصحاح: محمد بن أبي بكر الرازي (ت ٦٦٦هـ)، دار الرسالة- كويت،١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
٣٣- مدارك التنزيل وحقائق التأويل: أبو البركات حافظ الدين النسفي (ت ٧١٠هـ)، حققه وخرج أحاديثه: يوسف علي بديوي، راجعه وقدم له: محيي الدين ديب مستو، دار الكلم الطيب، بيروت، الطبعة: الأولى، ١٤١٩هـ – ١٩٩٨م.
٣٤- مسند الإمام أحمد بن حنبل: أحمد بن حنبل، تحقيق: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثانية ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
٣٥- معاني القرآن وإعرابه: إبراهيم بن السري بن سهل، أبو إسحاق الزجاج (ت ٣١١هـ)، تحقيق: عبد الجليل عبده شلبي، عالم الكتب – بيروت، الطبعة: الأولى ١٤٠٨ هـ – ١٩٨٨م.
٣٦- معاني النحو: د. فاضل صالح السامرائي، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع – الأردن، الطبعة الأولى، ١٤٢٠ هـ-٢٠٠٠ م.
٣٧- معجزة القرآن: الشيخ متولي الشعراوي، إعداد: أحمد زين شركة الشهاب، الجزائر، مكتبة التراث/ القاهرة، الطبعة الثانية، السنة ١٩٩٠م.
٣٨- معجم مقاييس اللغة: أحمد بن فارس(ت٣٩٥هـ)، عبد السلام محمد هارون، دار الفكر، ١٣٩٩هـ-١٩٧٩م.
٣٩- المفردات في غريب القرآن: الراغب الأصفهاني(ت٥٠٢هـ)، ضبط: هيثم طعيمي، دار أحياء التراث العربي، بيروت – لبنان، الطبعة الأولى ١٤٢٣هـ-٢٠٠٢م.
٤٠- الموسوعة العربية العالمية: نسخة اليكترونية ضمن المكتبة الشاملة.
٤١- النحو الوافي: عباس حسن (ت ١٣٩٨هـ)، دار المعارف، الطبعة الخامسة عشرة.
٤٢- النداء في القرآن الكريم: مبارك تريكي، رسالة علمية مقدمة لنيل شهادة الدكتوراه في اللغة العربية وآدابها، السنة الجامعية ٢٠٠٦-٢٠٠٧م. الجمهورية الجزائرية / جامعة ابن يوسف – الجزائر.